مجلة أبحاث
ISSN: 0834-2170
EISSN2661-734X
المجلد 06 / العـدد: 02 (2021)، ص 503– 512

المقام في الأساليب العربية

Maqam in Arabic Methods

عبد الله رزوقي*، جامعة أحمد دراية أدرار، razabdallah2018@gmail.com

تاريخ الاستلام: 24 /2021/09م تاريخ القبول: 11 /2021/11 تاريخ النشر: 31 /2021/12

ملخص:

تختلف المقامات باختلاف المكان والزمان وباختلاف أحوال الناس، فما يحسن في زمن لا يحسن في زمن آخر، وما يستحسن على أهل البلد لا يستحسن عند أهل بلد غيره. فعبارة كثير رماد القدر في زماننا لن يكون المتلقي قادرا في – الغالب – على استنباط معناها الثاني – الكرم – في مقام المدح من خلال معاني ألفاظها لأن الكرم في زماننا لم يعد يجسد فقط عن طريق تقديم طعام الضيوف. بل إن لفظة قدر ولفظة رماد لا تستخدمان في كلامنا اليوم لأن طرق وأدوات الطبخ عندنا متقدمة تقنيا.

فكل هده الأقوال والأمور توصلنا إلى غاية الكناية، فهي تحرك دوائر التفكير لدى المتلقي، لا ينبغي حصر هده الدوائر في قوالب جامدة، وإنما يتحرك فيها المتلقي ويتدرج من لحظة إلقاء القول إلى لحظة الوصول إلى المعنى المراد والتي تثير لدى المتلقي عددا من الصور والإيحاءات التي يتدرج معها بحسه وعقله. وما يقال في الكناية يقال عن غيرها من تشبيه واستعارة وتمثيل وإلى غير دلك من الأساليب البيانية.

الكلمات المفتاحية: المقامات؛ الكرم؛ المتلقي؛ المدح؛ الكناية.

Abstract:

Al-Maqamat differ according to the place and the time and according to the different conditions of the people. The phrase many ashes of fate in our time will not be able to the recipient –mostly- to derive its second meaning -generosity- in the place of praise through the meanings of its words because generosity in our time is no longer embodied only by serving guests food. In fact, the terms "pot" and "ash" are not used in our speech today because our cooking methods and tools are technically advanced.

All these sayings and matters have reached the goal of the metonymy, as it moves the circles of thought for the receiver. These circles should not be confined to rigid moulds but rather, the receiver moves in them and gradually moves from the moment of uttering the saying to the moment of reaching the desired meaning, which raises in the recipient a number of Images and suggestions that he gradual with his sense and his mind. And what is said in the périphrase is said about other similes, metaphors, representations, and other rhetorical methods.

Keywords: Al-Maqamat; Generosity; Receiver; Praise; Périphrase.

* عبد الله رزوقي

مقدمة:

إن الحالة التي يكون عليها السامع تقتضي أسلوبا معينا دون غيره، وهذا يوضح إن كل أسلوب لغوي يناسب مقاما خاصا ودلك تطبيقا لمبدأ: "لكل مقام مقال".فلمقام التوكيد مقال، أي نوع خاص من الأساليب والمقام مجرد الإخبار مقال وهكذا، ومقامات الكلام كثيرة ومتفاوتة: فإلى جانب مقام الحذف ومقام الذكر، ومقام التقديم ومقام التأخير، ومقام التعريف، ومقام التنكير، هناك كمقام التشكر، ومقام الشكاية، ومقام التهنئة، ومقام المدح، ومقام الذم ومقام الترغيب ومقام الترهيب، ومقام الجد، ومقام الهزل... ثم هناك مقام الكلام مع الذكي والذي يختلف فيه الحديث مع الغبي، إذ قد يكفي الإيجاز مع الأول في حين يحتاج الثاني إلى الإطناب. وهناك من مقامات الكلام ما يقتضي الوصل بين الجمل والعبارات بحرف العطف وما أشبه، وهناك يقتضي الفصل بينهما بوسائل الفصل. فكل أسلوب من هده الأساليب المتعددة حالة تتطلبه وتستدعيه يكون أعلق بها وأليق بالمعنى من غيرها وأقدر على التعبير عنها.

2. مقام تأكيد الكلام.

فحين يقتضي المقام –على سبيل المثال– تأكيد الكلام، ويؤكده بما يناسبه، فقد يؤكده بمؤكد واحد، أو بمؤكدين أو ثلاثة، فالتأكيد فيه لا يأتي سدى.فمن كان خالي الذهن من كلام معين غير متردد، ولا شك ولا جاحد ولا منكر يخاطب بأسلوب خال من المؤكدات، فيقال مثلا "الصيام مفيد". ومن كان مترددا أو يتلقى الكلام بشيء من عدم الرضا أو القناعة يساق إليه الكلام بأسلوب التأكيد، فيقال: "إن الصيام مفيد". ومن كان منكرا للأمر، رافضا له، غير معترف به يخاطب بأسلوب يحمل أكثر من علامة تأكيد فيقال له: "والله إن الصيام لمفيد" (الحاج، 2001، الصفحة 58).

وقد ورد في الإتقان أنه إذا اجتمعت "إن" و اللام" كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات لأن "إن" أفادت التكرار مرتين، فإذا دخلت اللام صارت ثلاثا، وورد فيه أيضا أن ابن جني قال: (كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى). والقرآن الكريم يراعي هدا المقام حق رعاية. ففي مقام الفزع والخوف والاضطراب يقول الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام: (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى)، يؤكد الكلام له "بأن" و "الضمير" تأكيدا يبعث الاطمئنان والثقة بمعية الله سبحانه وتعالى. وتقرير غلبة موسى عليه السلام، إذ هو في حاجة إلى ذلك فجاء الكلام موافقا لحالته.

ومن ذلك ما نجد قول إخوة يوسف عليه السلام: (قالوا إنك لأنت يوسف)، استعظاما وتعجبا من حالهم لعدم معرفته مع ترددهم عليه، ولذلك شاء أن يأتي تعبيرهم مؤكدا مراعاة لحالهم في تلك اللحظة.

ومنه قوله تعالى: (واضرب لهم أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون).

فيتفاوت التأكيد في الكلام بحسب حال الداعي فبعد أن كدب أصحاب القرية المرسلون خاطبهم الثلاثة بقولهم: (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون)، وأكدوا الكلام ب:"أن" و اللام" و "اسمية الجملة" ، فكثرت التأكيدات لمبالغة المخاطبين في الإنكار.

فمن الواضح هنا أن المقال أو الخطاب على قدر السامع لا المتكلم أي على وفق حال المتلقي، و (هكذا يرتبط المقام بالمقال على نحو يتحدد فيه المقال بالمقام ويستكشف فيه المقام من خلال المقال).

وبناء على هدا نرى أن التركيب اللغوي يساعد كثيرا على معرفة المقام الذي أنجبه وفي معرفة حالة المتلقي عندها، فلو أخدنا التركيب السابق ذكره (الرازي، 1985، الصفحة 45): (إنا إليكم لمرسلون) فإننا نخرج منه بإنكار المتلقي للأوامر ورفضه له، لأننا خاطبناه بأسلوب يحمل علامة تأكيد، ولعرفنا أن المقام في مثل هده التراكيب مقام تأكيد الكلام. فالشكل اللغوي أو الأسلوب اللغوي أداة الحالة إلى الظهور، وأحسن الأشكال وأوفقها هو الشكل الذي تتخطاه إلى حالته، فما عمل الأشكال إلا أن تساعد الحالة على الظهور وترسمها بريشة دقيقة. لكننا ندرك في الوقت نفسه أن بعض التراكيب يعجز المتلقي أن يحدد مقامها، مثال ذلك عبارة "أنا

خائف". فالسؤال الذي نطرحه هنا: هل يستطيع تركيب هده العبارة أن يدلنا على مقامها ونقول: يتعذر علينا أن نعرف مقامها من خلال تركيبها. فمعنى هده العبارة فضاء مفتوح على كل القراءات لأن مقامها غير معلوم، فممكن أن يكون مقام خوف: فتكون صرخة تعبر عن خوف أو مقام سخرية أو مقام شك... فلا توجد حدود فعلية وعملية لقدرة المتلقي على تخيل مقامات هده العبارة، فالقراءة مفتوحة لمثل هده العبارة غير أن السؤال الصحيح هنا ما هو المقام الذي ترد فيه مثل هده العبارات؟ لأن معنى هده العبارة إنما يتحدد بالمقام الذي قيلت فيه.

ونظيرها عبارة "الحمد لله" فما المقامات التي يمكن أن ترد فيها هده العبارة؟

مقام المرض، فأنت تسأل إنسانا- كان مريضا - فتزوره بعد شفاءه، فتقول: كيف حالك؟ فيقول "الحمد لله" وهدا يعني أنه شفي من مرضه، وشعر بالعافية، وأحسن بحلاوتها بعد المرض (زهرة، 1978، الصفحة 145).

مقام الحزن أو مقام الظلم، فتسأل هدا الإنسان- وهو مظلوم أو محزون لسبب من الأسباب- كيف حالك؟ فيجيب: "الحمد لله". وهذه العبارة تعني: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. مقام الصلاة، يقف هدا الإنسان أمام الله خمس مرات في اليوم والليلة، فيقرأ سورة الفاتحة في الصلوات الخمس سبع عشرة مرة (إن اكتفى بالفرائض) وفي كل مرة يفتح القراءة قائلا: (الحمد لله رب العالمين)، وكيف لا يحمد وقد هداه إلى الصراط المستقيم، وأكرمه بالنبي الكريم وبالقرآن الكريم.

"ولقد توصل الغزالي إلى ثراء المقام في تحديد المعنى: فإذا قال المتكلم (السلام عليكم)، فإن هذا المعنى المفهوم من هذا الكلام يكون حسب المقام الذي يستخدم فيه، فقد يكون المقصود التحية وقد يكون الاستهزاء أو اللهو" (زهرة، 1978، الصفحة 58).

وقد تعني الوداع إذا قيلت لمن زار ضيفه وهو يهم بالخروج قائلا إياها، قد تعني الغضب إذا قيلت لمجموعة من الأصدقاء يتحدثون معا لم يعجب أحدهم الحديث، فيطلب منهم تغييره فلا يعيرونه انتباها، عندئذ يقول هده العبارة.

وقد تعني الاستنكار عندما تقال من قبل صديق لصديق عرف عنه الخلق السوي ورفضه الجلوس في بعض الأماكن كالسينما والمقاهي. فيمر يوما ما بباب المقهى فيلمح صديقه فيطرح عليه هده التحية مستنكرا عمله وقد تفيد الممازحة والإضحاك كأن تغني الأم بعبارة التحية ترمي إلى الإضحاك.أما سؤالهم: كم الساعة الآن؟ فيقال عادة للاستفهام عن الوقت، وقد يفهم منها في مقام آخر معنى غير ذلك، فحين يقولها الرئيس أو المسؤول لموظف عنده قد تأخر عن موعد الحضور، فإنها تدل على السخرية والتهكم.

2. مقام التنكير:

قال تعالى: (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا) في هذا الآية جاء التنكير في مفردة "يوما" بما يناسب حالة المبالغة والتهويل في شأن ذلك اليوم الذي يأخذ تصوره في النفس كل مأخذ لجسامة أحداثه، وشدة أهواله" (زيدان، 1985، الصفحة 57). وهذه الصورة من الفزع النفسي لم تكن لتكون على هذا النحو من الجسامة لو جاءت المفردة على صورة التعريف (واتقوا اليوم) لأن المعروف لا تخشى عواقبه، ومن ثم لا يجري التحذير منه لاجتناب عواقبه.

ومن التنكير الذي يلائم حال التعظيم تنكير "هدى" في قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) فإنه يفيد ضربا مبهما لا يبلغ كنهه، ولا يقدر قدره فيما لو قلنا (على هدى) كأنه قيل: على أي هدى كما تقول: (لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا).

ومنه ما يناسب حال التكثير، كما في قولهم: إن له لإبلاء وأنه له لغنما" أي إن له كثيرا من الإبل والغنم، وإن كثرة إبله وغنمه مما لا تمكن الإحاطة به.

فلو عرفنا"ابل" " غنم" (الإبل،الغنم) لما أفادتنا معنى التكثير، فجاءت الكلمتان نكرتين على وفق ما يقتضيه المقام.

3. مقام التعريف:

ومن أمثلته:

تعريف المسند إليه بالموصلية وما يناسب حال الغرض المسوق له الكلام نحو قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام:" (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) فالغرض لمسوق له الكلام هو بيان نزاهة يوسف عليه السلام وبعده عن خطيئة الفحشاء. وما ذكر من اسم الموصول وصلته أشد تحقيقا وتقريرا لتلك النزاهة مما لو قيل "امرأة العزيز" أو "زليخا". وذلك لأنه امتنع عن الفحشاء مع كونه في بيتها مما يجعل لها المقدرة والسيطرة عليه حيث كان في غاية النزاهة والطهارة باطنا وظاهرا" (زيدان، 1985، الصفحة 59).

إن علم المعاني والعناصر والتي تتكون منها بنيته الداخلية كانت مدمجة مع موضوعات علم النحو حيث كانت تدرس على مستوى التركيب والإعراب، "كما على مستوى المعاني وخواص التركيب. وأن علم المعاني ليس المقصود به جلب القلوب بلطائف التعبير بل قبول العقول للأفكار الصحيحة". أما العلم الذي مهمته جلب القلوب بلطائف التعبير فهو علم البيان.

1.3 علم البيان: مقام المتكلم، مقام التأثير، مقام العاطفة:

يفترض فيعلم البيان إمكانية التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة مع وضوح الدلالة. وأما علم البيان فهو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، والنقصان بالدلالات الوضعية غير ممكن.

فما يعنيه البلاغيون هنا أن على المتكلم أن يختار من أساليب البيان ما يناسب الوفاء بمقصده، وضوحا أو خفاء حسب ما يقتضيه المقام، بسبب قصور الحقيقة عن إفهام المراد إفهاما يناسب المقام فتمس الحاجة إلى استعمال الألفاظ في غير معانيها الوضعية، لكون المطابقة لمقتضى الحال لا تتحقق إلا بهده الأساليب.

فتتبع ورود المعنى الواحد في طرق مختلفة يكون في الدلالات العقلية، مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر وثان وثالث، والدلالات العقلية تقوم على الانتقال من معنى إلى الوصول إليها، "و يبين لنا أن هناك ضربا من الكلام لا نصل إلى الغرض منه بدلالة اللفظ وحده بل "يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض". فادا أردت تشبيه الخد بالورد في الحمرة مثلا، وقلت: خد يشبه الورد، امتنع أن يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه في الوضوح أو النقص" (مصلوح، 1998، الصفحة 20)، "فإنك إذا قمت مقام كلمة منها ما يراد فيها، فالسامع، إن كان عالما بكونها موضوعة لتلك المفهومات، كان فهمه منها كفهمه من تلك، من غير تفاوت في الوضوح، وإلا لم يفهم شيئا أصلا" (فضل، 2004، الصفحة 52).

وينتهي إلى القول: "...فيها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: "المعنى ومعنى المعنى تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي نصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك دلك المعنى إلى معنى أخر".

ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل. "أولا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماد القدر " أو قلت: "طويل النجاد أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فانك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن بدل اللفظ على معناه الذي فهم من ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانيا هو غرضك، كمعرفتك من كثير الرماد القدر أنه مضياف، ومن طويل النجاد أنه طويل القامة، ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها" (العجلي، 1998، الصفحة 221).

2.3 مقام المتكلم و مقام المتلقي:

والاستدلال على مقصد المتكلم وغرضه إنما يؤسس على مرجعية مشتركة بين المتكلم والمتلقي وليس استدلالا حرا، فلا بد عنده من معرفة حال المتكلم وحال المتلقي ومقام المقال – فإذا لم يعرف المتلقي من قول المتكلم فلان كثير القدر أنه مضياف، أو يعرف من قوله عن امرأة إنها "نؤوم الضحى" إنما تعيش عيشة مترفة... لم يتيسر له معرفة تلك المعاني الثواني، وانتهى به الأمر عندئذ إلى الوقوف على المعاني الأوائل التي لا تتعلق بمطلب المتكلم ومراده.

"فالجرجاني يطلب من المتلقي من أجل أن يفهم معنى المعنى، أو المعنى الشأني لعبارة مثل "كثير رماد القدر" أن يكون محيطا بالعلاقات غير اللغوية التي يتوقف عليها فهم المعنى الشأني. وهذه العلاقات ماثلة في أوضاع البيئة العربية البدوية، حيث تقضي العادات عندهم بتقديم الطعام لضيفهم الوافد، وحيث يكون طهو الطعام في قدور وذلك عندما تشب النار في الحطب الذي ينتهي إلى رماد، فيتكاثر الرماد نتيجة كثرة الطهو، ويكثر الطهو لكثرة الضيوف وهكذا" (مدكور، 1952، الصفحة 222).

فالمتلقي لا بد أن يلم ويحيط بكل هده الأمور "حتى يستطيع أن يدرك المعنى معنى الكرم في مثل تلك العبارة" (معوض، 1998، الصفحة 221). وهذا هو المقام الحضاري الاجتماعي الذي لا يمكن أن تفضي العبارة إلى معناه الصحيح إلا في إطاره فقط.

والسؤال الذي يطرح هنا هل مثل هده العبارات "كثير الرماد" ، "نؤوم الضحى" "طويل النجاد" التي قد تشتمل في أصلها على كنايات أو استعارات أو مثيلات أو غير ذلك، ما هي إلا عبارات مبتذلة – من كثرة استخدامها- فهي قد ترددت على الألسن كثيرا فثبت لها كمعناها الثاني بالتواتر، فلم تعد بالمتلقي حاجة إلى معرفة المقام الحضاري الاجتماعي لمعرفة معناها. وعندئذ لا تبرز أهمية الاتكاء على مثل هذا المقام في فهم المعنى الثاني لمثل هده العبارات إلا عند الوقوف على عبارات بكر.

وهذا معناه أن مجرد معرفة المقام الحضاري والاجتماعي في مجتمع بعينه لتكفي وحدها للوصول إلى المعنى المقصود خاصة عند مواجهة عبارات بكر لم يبتذلها الاستخدام وعندها لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار بعدا آخر هو المقام الذي قيلت فيه العبارة، أهو مقام مدح أو مقام ذم أو مقام سخرية... وهذا البعد هو الضابط وصمام الأمان للوصول إلى المعنى المقصود من بين المعاني الممكنة.

فلو رجعنا إلى عبارة "كثير رماد القدر" وسألنا أنفسنا: كيف نستدل على المعنى الصحيح لمغزى كثير الرماد؟؟.

نجد الإجابة في قول الجرجاني حيث يقول: "أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ. ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم "هو كثير رماد القدر" (الغلاييني، 2000، الصفحة 154) وعرفت أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصيب للقدور الكثيرة، ويطبخ فيها للضيوف. وذلك لأنه إذا كثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة".

ففي هذا النص إشارة واضحة إلى الكيفية التي يمكن أن نستدل بها على معنى الكرم في مثل تلك العبارة هو: مقامها الذي قيلت فيه وهو هنا مقام المدح.

فالمقام هو الذي سيقود المتلقي إلى أن يقفز عن المعنى الأول المباشر للعبارة – لأنه في مقام المدح لن يكون لكثرة رماد القدر في حد ذاتها أي معنى إلى إدراك المعنى الثاني أو معنى المعنى الكرم الذي يتفق ومقام المدح.

"إلا أننا نرى أن معرفتنا بالمقام الذي قيلت فيه تلك العبارة مقام المدح آت يعني أن معناها الثاني هو الكرم، فقد تعني أن الشخص يعيش في حياة رفاهية بالقياس إلى البيئة البدوية فهو شخص غني، وستعني كثرة رماد القدر عندئذ أن هذا الممدوح وأهله يأكلون الطعام المطبوخ دائما فهم لا يأكلون القديد أو التمر أو يشربون اللبن" (معوض، 1998، الصفحة 214).

فتكون عمليات الطهي في القدور كل يوم حيث يحرق تحتها حطب كثير ينتج عنه رماد كثير. ومثل هذه العبارة قد تدل على أن الشخص قد يعيش حياة معدمة إذا قبلت في مقام أخر مقام السخرية بل إن كثرة الرماد في حد ذاتها ربما كانت دليلا على القذارة وعدم النظافة في مقام الدم. "ومن جهة أخرى إن المعنى الثاني الذي يحكمه مقامه والظروف والملابسات لتي كانت تحيط بالمتكلم والمتلقي، معنى قابلا للتعدد والتغير مع مضي الزمن لأن هذا المعني في الأصل متولد من علاقة خاصة بين المتكلم والمتلقي، وبين المدلولات (المعاني) وبين المقام الحضاري والاجتماعي والثقافي الذي تولدت فيه مثل هده العبارات، فهده العناصر جميعا متضافرة وفي الوقت نفسه متغيرة مع مضي الزمن" (ميلاد، 2001، الصفحة 122).

4. تعلق الأساليب بالمقامات:

وهكذا نواجه مشاكل أساسية في طرق معالجة الأساليب البيانية من ناحية دلالية، ولعل هذا مسوغ كاف لإدراج هذه الأساليب ودراستها في ضوء المقام.

فالمقام هو المدخل الرئيسي في دراستها بشتى أقسامها وعلاقتها بالأشخاص المعنيين بالخطاب. وهو المفتاح الصحيح للكشف عن خصائصها (بلخير، 2003، الصفحة 124). وبالتالي فعلى المتكلمين العمل على توظيف هذه الأساليب إذا ما أرادوا بناء أول جسور التواصل بينهم وبين متلقيهم، ولكن لا بد من طرحها بالأسلوب المناسب وبما ينسجم والمقام.

والأسئلة التي تطرح نفسها في المقام

- هل يسعى البيان حقيقة إلى الإفصاح؟

-وهل تكون الصورة المجازية أكثر وضوحا من التعبير الحقيقي؟

-بل الذي يدفع المتكلم إلى الخروج من منطق اللغة والوضوح بصورة تتراوح عن الاستعمال الطبيعي للغة؟

-هل الأساليب البيانية منفصلة على حدود المعنى تماما وعلى الحالة الشعورية التي يمر بها المتكلم؟ (الغزالي، 1966، الصفحة 145)

-وهل خاطب الأساليب العقل ليفهم أم لينفعل ويتأثر؟

-وكيف تحدد هده الأساليب الأحوال والمقامات الاجتماعية والثقافية والحضارية؟

إن كل ما يتوخاه مستعمل اللغة من ضروب الأساليب البيانية، إنما سببه دقائق المعاني التي في النفس و لطائف المقاصد التي يريد بلوغها باللفظ، فلا معتبر إلا هذا وإلا كان بكثير الألفاظ ضوضاء صوتية لا يعتد بها "فإذا اتفق ... تشبيه لتلقاه بالقبول أو حكاية تستغرب، فابحث عنه، ونفر عن معناه، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها وعلمت أنهم أدق طبعا، من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته".

"فالهدف من الأساليب البيانية أو الصور البلاغية ليس مجرد إقامة علاقات عقلية بين مشتبه ومشتبه به، أو افتراض أقيسه منطقية بين حقيقة ومجاز. إن الصور البلاغية وسيلة الشاعر أو الأديب أو المتكلم ليعبر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها أو يجسدها، فهي الوحيدة القادرة على تقديم المعنى الذي يرومه أو الحالة التي يعيشها، بل هي المخرج الوحيد لشيء لا ينال بغيرها أو هي ترتبط بمستوى التجربة الفنية التي يعيشها" (ميلاد، 2001، الصفحة 122).

فتحتضن هذه المشاعر وتعايشها وتقدمها في قالب جميل تعجز اللغة العادية أن تصل إلى مستوى هده الأساليب. وباختصار هي أفانين التعبير عن الأحاسيس الكامنة في الصدور بواسطة الكلم، أو وجه من وجوه معاني القول. وبهذا المعنى لا تصبح الصورة شيئا هامشيا ثانويا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه وإنما هي وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق، أو لتحديد دلالة سيكولوجية خاصة.

بالإضافة إلى أنها تمنح اللغة خصوصية إقامة علاقات بين ألفاظ جديدة تتميز بالتفرد، وتصوغ المعاني بطريقة جذابة تستلذها الأنفس وتطرب لها الأذان.

مثال عن علاقة الأساليب بالمقام "التشبيه والكناية أنموذجين"

تتفاوت الأساليب بتفاوت تعلقها بالمقام والأحوال، فالتفاوت بين الأساليب ليس تفاوتا في بناء اللغة – وإنما احتياج – هو تفاوت في درجة التفكير، وعمق الرؤية، لهدا عبد القاهر بالأصباغ التي يصنع منها الفنان صورته والنساج نسيجه، إذ نجده مرة يشبه ومرة يلجأ إلى الاستعارة وثالثة يرمز ورابعة يعبر بالصورة. كل هده الأساليب لا يمكن أن نسند إليها فضلا في كل كلام على إطلاقه، فالفضل نابع من المقام الذي ترد فيه، وهو الذي يحدد نسبية فضل كلام من جهة، واستحالة تكرار المعنى نفسه في صور مختلفة لما تنطوي عليه كل بنية لغوية من خصوصية، "فلو أخدنا"، مثلا، صيغتي التشبيه "زيد كالأسد" وكان "زيد كالأسد" لوجدناهما تشتركان في أصل المعنى وهو تشبيه الرجل بالأسد، إلا أن الصيغة الثانية أقوى في الدلالة لأنها حولت علاقة الشبه إلى علاقة تطابق وأوهمتنا بأن الرجل أسد في صورة أدمي ". يقول حازم القرطاجني في هدا الأمر وهو يتحدث عن كاف التشبيه" اشترك الكاف وكأن في الدلالة على التشبيه وكان أبلغ، قال وهي إنما تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به أو غيره (دايك، 2000، الصفحة 68)، ولذلك قالت بلقيس (كأنه هو).

فما علاقة أداة التشبيه (الكاف) وأداة التشبيه (كأن) بالحالة النفسية والشعورية التي يكون عليها المتكلم و المعنى الذي يتشكل في ذهنه؟ وما الدوافع الكامنة وراء استخدامه أداة التشبيه بعينها؟ وبعبارة أخرى هل يوجد علاقة بين الحالة التي يعيشها المتكلم والمعنى الذي يرومه واختياره أداة بعينها؟ "الكاف" في عبارة "زيد كالأسد" تفيد قرب المشبه من المشبه به لكنها لا تفيد المبالغة، فلا مشبه ظل مستقلا بذاته عن المشبه به ووقفت "الكاف" حاجزا شكليا نفسيا بين طرفي التشبيه تقرب بينهما ولا تبالغ في العلاقة بين الأطراف . وهي عقدت مقارنة بين هدين الطرفين دون أن تظهر علاقة "المتكلم" بهما وجدانيا وعاطفيا.

أما أداة التشبيه "كأن" في عبارة "كأن زيدا أسد"، (دايك، 2000، الصفحة 124) فان وجودهما يمثل رحلة أكثر عمقا في عملية التشبيه لوجود المشبه والمشبه به دون فاصل بينهما، والكاف تقترن "بأن" التي تؤكد قوة العلاقة وخصوصيتها بين المشبه والمشبه به وتجمع بينهما في تركيب جديد يعكس عمق إحساس المتكلم بهما " فلا يقصد بها مجرد مقارنة أو تدرج في المعنى أو تقريب في الوصف كما لاحظنا في التشبيه الذي اعتمد "الكاف". فالكاف لا تؤدي الغرض الذي تؤديه ص كأن "من حيث قوة المعنى والدلالة عليه. "فكأن" مع التشبيه السابق جعلت المشبه قريبا من المشبه به حتى أن السامع يتوهم أنه الأسد بعينه. أما "الكاف" فإنها تباعد بينهما.

ومن هنا نلاحظ أن أداتي التشبيه "كأن" و "الكاف" ليستا على مستوى واحد في الدلالة فهما ترتبطان " بدلالات مختلفة تتوافق وإحساس المتكلم بعناصر التشبيه التي يشكلهما، ومدى تأثره بها، وعلاقته معها، وأنه لا يمكن الفصل بين الأداة في التشبيه ونوعها وبين إحساس المتكلم الداخلي بالتشبيه الذي يشكله.

"ويأتي اختيار الأسلوب وفق هده العلاقة مما يفسر سبب إلحاح المتكلم على أسلوب بعينه. فالأساليب المختلفة تعني معاني مختلفة وأحوالا مختلفة، فالمعنى يتغير بحسب تغير الأسلوب وكل ما يطرأ على المعنى من دقة و اتساع يكون للأسلوب نصيب منه. "لأن هناك عبارة أحق بالمعنى من أخرى غيرها". وعبارة ألصق بالمعنى من غيرها. وهناك عبارة تمثل المعنى أمام العين أكثر من أخرى.

ومن هنا نلاحظ أن أداتي التشبيه "كأن" و "الكاف" ليستا على مستوى واحد في الدلالة فهما ترتبطان "بدلالات مختلفة تتوافق وإحساس المتكلم بعناصر التشبيه التي يشكلها، ومدى تأثره بها، وعلاقته معها، وأنه لا يمكن الفصل بين الأداة والتشبيه، ونوعهما وبين إحساس المتكلم الداخلي بالتشبيه الذي يشكله.

ويأتي اختيار الأسلوب وفق هده العلاقة مما يفسر سبب إلحاح المتكلم، على أسلوب بعينه. فالأساليب المختلفة تعني معاني مختلفة، فالمعنى يتغير بحسب تغير الأسلوب، وكل ما يطرأ على المعنى من دقة واتساع، يكون للأسلوب نصيب منه. "لأن هناك عبارة أحق بالمعنى من عبارة، وعبارة ألصق بالمعنى من غيرها، وهناك عبارة تمثل المعنى أمام العين أكثر من أخرى". وتبعا لهذه الحالة ولطبيعة الإحساس بالمعنى تتنوع وسائل تقريرهم والمبالغة في إثباته فنجدهم يعبرون عن معنى الكرم على سبيل المثال بطريق التشبيه فيقولون: فلان كالبحر في العطاء، وتارة عن طريق المجاز، مثل رأيت بحرا في منزل فلان، أو عن طريق الكناية مثل: هو كثير الرماد " و "جبان الكلب" و "مهزول التفضيل" (لاشين، 1980، الصفحة 154). أو عن طريق المجاز المرسل مثل: له عندي أياد كثيرة ". فالمعنى واحد لا يقع في النفوس على حد واحد. وإنما يثير في نفوس من يرونه صورا مختلفة باختلاف هده النفوس واهتماماتها وما تمارس وتعايش في تجاربها. والأساليب السابقة تختلف درجاتها في تأكيد المعنى وبلاغته. فالتشبيه مع تنوعه في الدلالة أقل بلاغة من الاستعارة لقيامها على الأداء والتأويل في إثبات المعنى. "والاستعارة أبلغ من الكناية والمجاز في إثبات المعنى وتأكيده. بل إنها تشكل المرتبة العليا في البلاغة، فالمتكلم يطور أساليبه البلاغية، بما يناسب الحالة التي يعيشها والمعنى الذي يريده، فكلما كانت الحالة التي يعيشها المتكلم ناضجة وأكثر عمقا احتاج لي جهد مضاعف حتى يوفق في التعبير عنها، فللتشبيه مستوى في الإدراك، وللاستعارة مستوى أخر متقدم، وللصورة مستوى ثالث، والرمز مستوى رابع، والأسطورة مستوى خامس وهكذا....، وهذا يفترض لغة فنية خاصة"، تشكل معنى وتفترض تجديدا مستمرا في التعبير يتغير الحالة الخاصة، والمعنى الخاص، والذي أقصده هنا أن الحالة الخاصة التي يعيشها المتكلم أو الشاعر والتي يقف فيها وجها لوجه أمام الأشياء في العالم هي اللحظة التي تجعله يتحيز لي التشبيه مثلا، ولا يتحيز إلى الاستعارة أو يعبر بواسطة الرمز، ولا يعتمد غيره من الأساليب البيانية الأخرى، ومعنى ذلك أن لكل عنصر من هده العناصر وحدة خطاب قائمة بذاتها، واستخدام أحد الأساليب في خطاب لا يأتي على حساب أخر وإنما يلجأ إليها المتكلم عندما يشعر بالحاجة إليها في نقل تجربته الخاصة إلينا لعله يجعلنا نعيش تلك اللحظة التي عاشها بالأسلوب الخاص به، والذي هو قطعة من نفسه بل هو صورة واضحة بوضوحها، مرتبط بارتباطها.

ومن هنا إن قيل: "كيف تكون دلالة لفظ المجاز أوضح من دلالة الحقيقة؟ بل المجاز مخل بالفهم. قلنا: لما كان المقام معروفا ارتفع لإخلال الفهم، وفصاحة الاستعمال المجازي لا تعتمد على كونه أقوى من القياس، وإنما في كونه واضح الدلالة على المعنى المراد، وأنه متداول في الاستعمال اعتمادا على الوضوح" (الرحمن، 1999، الصفحة 158).

وإنما كانت أساليب "البيان" أوضح من أسلوب الحقيقة لما فيها من الدلالة على المقصود بالشاهد والدليل، كإحراق الناقص في المعنى الكامل فيه والمعقول بالمحسوس بمعونة المقام.لكننا في الوقت نفسه نرى المتكلم لا يلجأ إلى مثل هده الأساليب لكي يحقق الوضوح والإفهام فقط إذا أراد بهذا أن يكون دقيقا في وصف أحاسيسه وإنما إلى جانب ذلك فانه يستخدمها لمفاجأة المتلقي، وهو يفاجئه بالإشراق المفاجئ للعلاقة بين الفكرة و الأسلوب البياني، فمثل هده العبارات تفتح لمجال أمام علاقات بين الأشياء، لم تكن مدركة من قبل فتشكل "صدمة للقارئ" أو "دغدغة نفسية". بل إن قيمة كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدة المفاجأة التي تحدث تناسبا طرديا بحيث أنها كلما كانت غير منتظرة كان واقعها على نفس المتلقي أعمق ". لهذا لا يراد من الوضوح معنى التوصيل فحسب وإنما يشترط في التأثير في السامعين. يقول الجاحظ في تعريف البلاغة: " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك. ويقول في موضع آخر: "إذا كان المعنى شريفا" واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا عن الاستكراه، و منزها عن الاختلال مصونا عن التكلف.

ويتضح في هذا التأثير من خلال تركيز الجاحظ على لفظة "قلبك" ولفظة "القلوب". ومما لا شك فيه أن دلالة القلب ترتبط بدوق المتلقي وتهتز له عاطفته بقدر ما يكون الكلام بليغا ومؤثرا. ويقول الجاحظ: "إذا نقل من أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأيقاضا للإصغاء إليه إجرائه على أسلوب واحد، وتختص مواقعه بفوائد".

5. خاتمة:

يعتبر المقام من التعابير الأساسية التي يعول عليها في إظهار المعنى فيفضل فهمنا للمقام نستطيع أن نفهم سياقات المقام المختلفة، ولذلك كان حري بنا أن نطرق هذا الموضوع حتى يتسنى لنا ولغيرنا فتح نافذة معرفية تعنى بمقامات الكلام المختلفة والتي من شأنها أن تقلص من الفارق الذي يجعل الكلام مثل بعضه البعض وبالتالي لا يصبح للأدوات التي تعزز المعنى أي دور كأدوات التوكيد وغيرها فبفضل معرفتنا لسياقات الكلام نستطيع أن نفك شفرات النص بلمح البصر من خلال المقام. فإذا أردنا التعبير عن فكرة معينة نجد على الفور أن مجموعة من الكلمات تدفقت إلى الدهن دفعة واحدة، بشكل عفوي، ودون جهد. وهكذا المبدع، فنحن لا نعلم هل كان أسلوب كاتب ما أو شاع قد جاء نتيجة وعي صريح به أو أنه صدر عنه كالفيض دون وعي صريح فالبلاغة رتبة فوق إفهام المعنى، رتبة شملها الامتياز في التعبير ومطابقته للمقام وافتنان المتكلم في التعبير والتصوير، ليضفي من أسلوبه على مقاله حالة من نور وبهاء تجتذب السامعين إلى أن يتمكنوا معه.

فالبحث المتقصي الذي يقوم به المتلقي مصدر فرح وسعادة إذا كان المعنى الذي توصل إلى كشفه يشبع رغبته. وهكذا يكون للأساليب سلطان على النفوس ووقع في الأذان يعرفه الإنسان أينما كان.

6. قائمة المراجع:

ابن سينا، تصدير الدكتور طه حسين باشا، مراجعة الدكتور ابراهيم مدكور. (1952). *الشفاء (المنطق)* (الإصدار الادارة العامة للثقافة بوزارة المعارف العمومية). القاهرة: المطبعة الأميرية.

أبو حامد الغزالي. (1966). *محك النظر في المنطق*. بيروت: دار النهضة الحديثة.

خالد ميلاد. (2001). *الانشاء في العربية بين التركيب والدلالة – دراسة نحوية تداولية* . القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع .

ذهبية حمو الحاج. (2001). *لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب منشورات تحليل لخطاب*. تيزي وزو: دار الأمل للطباعة و النشر.

سعد مصلوح. (1998). الدراسة الإحصائية للأسلوب بحث في المفهوم و الإجراء و الوظيفة. *مجلة عالم الفكر ، 20* (30)، صفحة 20.

صلاح فضل. (2004). *بلاغة الخطاب وعلم النص* (المجلد الطبعة الأولى). القاهرة: دار الكتاب المصري.

طه عبد الرحمن. (1999). *تجديد المنهج في تقويم التراث*. الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي .

عبد الفتاح لاشين. (1980). *التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر*. الرياض: دار المريخ للنشر .

عمر بلخير. (2003). *تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية* (المجلد الطبعة الثانية). الجزائر: منشورات الاختلاف .

فان دايك. (2000). *النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني*. الدار البيضاء: إفريقيا الشرق للطباعة والنشر.

فخر الدين الرازي. (1985). *نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق ودراسة: بكري شيخ أمين* . بيروت: دار العلم للملايين.

محمد أبو زهرة. (1978). *ابن حزم: حياته وعصره – أراؤه وفقهه*. القاهرة: دار الفكر العربي.

محمد بن محمود العجلي، تحقيق و تعليق و دراسة عادل عبد الوجود، و علي معوض. (1998). *الكاشف عن المحصول في علم الأصول* (المجلد المجلد الأول). بيروت: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.

محمود فهمي زيدان. (1985). *في فلسفة اللغة*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

مصطفى الغلاييني. (2000). *جامع الدروس اللغة العربية* (المجلد الطبعة 30). بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.